مركز الدراسات والبحـــوث

قسم الندوات واللقاءات العلمية

المؤتمـــــر
العربي الدولي لمكافحة الفساد

المحـور الأول
مكافحـة الفسـاد من منظـور إسلامـــي

موضـــوع
مفهوم الفساد والافساد في ضوء آيات القرآن

إعداد

د . عبدالرحمن جميل قصاص

الرياض : ١٠ ـ ١٢/ ٨/ ١٤٢٤هـ (الموافق ٦ ـ ٨/ ١٠/ ٢٠٠٣م)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة السلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أمّا بعد؛

فإنّ القرآن الكريم هو مصدر إرشاد الأمة الإسلامية، ومستودع علومها، وبألفاظه وآياته تحدد المفاهيم الصحيحة التي يحتاج إليها الفرد والمجتمع، ومن خلال كتاب الله الكريم نتعرف على أهم المصطلحات العلمية والعملية في حياتنا، بل وفي حياة جميع البشر.

وإننا لنلمس مدى حاجتنا جميعًا إلى الرجوع إلى المعين الذي لا ينضب، والمنهج الذي لا يخطئ وهو كتاب الله المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لتحكيمه في تحديد الألفاظ العلمية والمفاهيم الدقيقة.

ومن ذلك الوقوف التام والمعرفة الكاملة لمفهوم الفساد والإفساد من خلال آيات الله البيّنات في كتابه الكريم.

فكان هذا البحث الموسوم بـ (مفهوم الفساد والإفساد في ضوء آيات الكتاب) إسهامًا مني في إيضاح هذا المفهوم ومشاركة في (المؤتمر العربي الدولي لمكافحة الفساد) الذي تقيمه أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية بالتعاون مع (مكتب الأمم المتحدة لمكافحة المخدرات والجريمة)، وذلك من خلال المحور الأول لهذا المؤتمر.

- أهمية الموضوع:

وتبرز أهمية هذا الموضوع من خلال المحاور التالية:

١- حاجتنا الماسة والأكيدة لمعرفة المفهوم الصحيح للفساد والإفساد من خلال آيات الكتاب العزيز، وهو المصدر الأساس لهذه الأمة.

٢- يشرف هذا الموضوع بسبب صلته بكتاب الله المجيد، ويشرف الشيء بشرف متعلقه.

٣- قلة أو ندرة المراجع المتخصصة في تحديد هذا المصطلح في ضوء القرآن الكريم.

٤- تصويب أو تخطئة بعض التفسيرات البشرية أو الاجتهادات المنطقية أو غير المنطقية لمفهوم الفساد والإفساد.

خطة البحث:

احتوت خطة هذا البحث على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة جاءت على النحو التالي:

- مقدمة (وهي هذه التي بين أيدينا).
- المبحث الأول: الفساد والإفساد في لغة العرب.
- المبحث الثاني: مفهوم الفساد والإفساد في القرآن الكريم.
- المبحث الثالث: أصول وفوائد قرآنية في الفساد والإفساد.
- خاتمة.

هذا وأسأل الله تعالى العظيم ربّ العرش الكريم الحي القيوم الذي لا إله إلاّ هو أن يتقبل مني هذا البحث، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم سبحانه، وصلى الله وسلّم على نبّينا محمد وآله وصحبه وذريته، والله تعالى أعلم.

وكتب

د. عبد الرحمن بن جميل قصاص

مكة المكرمة ١٤٢٤/٧/١١هـ

المبحث الأول

الفساد والإفساد

في لغة العرب

مادة كلمتي الفساد والإفساد (فسد) لم تسوّد حولها الصفحات الكثيرة في كتب اللغة؛ لوضوحها وقصور معناها على معنى واحد، وأكثرَ أهلُ اللغة في تعريفها من استخدام ضدّ معناها.

قال ابن فارس: (الفاء والسين والدال كلمة واحدة، فسد الشيء يفسُد فسادًا وفُسُودًا. وهو فاسد وفسيد)[١].

وقال الراغب: (الفساد: خروج الشيء عن الاعتدال، قليلاً كان الخروج عنه أو كثيرًا. ويضادّه الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة) [٢].

وجاء في العين: (الفساد ضدّ الصلاح، والفعل فسد يفسُد فسادًا) [٣].

قال ابن منظور: (ولا يقال: انفسد، وأفسدُته أنا) [٤].

قال الزبيديّ: (ولم يُسمع عنهم انفسد في مطاوع فَسَد، وإلاّ فالقياسُ لا يأباه) [٥].

ويقال: أفسد فلان المال يُفْسِده إفسادًا وفسادًا، قال تعالى: ﴿والله لا يحبّ الفساد﴾ (البقرة: ٢٠٥).

وفسد الشيء: إذا أباره.

واستفسد السلطانُ قائدَه: إذا أساء إليه؛ حتى استعصى عليه [٦].

قال ابن منظور: (والمفسدة خلاف المصلحة. والاستفساد خلاف الاستصلاح. وقالوا: هذا الأمر مفسدة لكذا : أي فيه فساد، قال الشاعر:

إنّ الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة) [٧]

المبحث الثاني

مفهوم الفساد والإفساد

في القرآن الكريم

لقد تكرر لفظ الفساد والإفساد في القرآن الكريم خمسين (٥٠) مرة بيئات الفعل وتصريفاته، والمصدر واسم الفاعل.

فأما الفعل فذكر في ثمانية عشر موضعًا، نحو قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ (محمد صلى الله عليه وسلم: ٢٢).

وأمّا المصدر فذكر في أحد عشر موضعًا، ومثاله قول العليم الحكيم سبحانه: ﴿والله لا يحب الفساد﴾ (البقرة: ٢٠٥).

واسم الفاعل مفردًا كان أو على صيغة الجمع جاء في واحد وعشرين موضعًا في مثل قول السميع العليم سبحانه: ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾ (البقرة: ٢٢٠)، وفي قول الله العليم الخبير سبحانه: ﴿والله لا يحب المفسدين﴾ (المائدة: ٦٤).

فتم تعداد هذه الألفاظ في خمسين موضعًا [٨].

ولقد ورد ذكر أكثر ألفاظ الفساد والإفساد في القرآن الكريم متعلقًا بذكر الموضع؛ وهو الأرض، قال الله العظيم الحليم سبحانه: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ (الأعراف:٥٦ – ٥٨).

ومرة حُدد بالبر والبحر في قول الله تعالى ذكره: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر﴾ (الروم:٤١).

ومرة بالقرى، وهي البلدان والحواضر والأقاليم والمدن، يقول الله عزّ شأنه: ﴿إنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾ (النمل: ٣٤).

ومرة بالبلاد، يقول الرب العظيم سبحانه: ﴿الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد﴾ (الفجر: ١١-١٢).

وأحيانًا يذكر لفظ الفساد في القرآن المجيد متعلقًا بذكر السموات والأرض ومن فيهن يقول الله الخبير البصير سبحانه: ﴿ولو اتبع الحقّ أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾ (المؤمنون: ٧١).

كما ترد ألفاظ الفساد والإفساد مطلقة غير مقيدة، فقد يحمل المطلق هنا – والله تعالى أعلم – على المقيد المذكور سابقًا. قال الله تبارك وتعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابًا فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ (النحل: ٨٨).

ومن المفيد أن نتعرف على بعض من وردت فيهم هذه الألفاظ من الأمم والأقوام والأشخاص، فمن هؤلاء: بنو إسرائيل، قال الله تعالى شأنه: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوًا كبيرًا﴾ (الإسراء: ٤). وقال الله سبحانه عنهم: ﴿ويسعون في الأرض فسادًا والله لا يحب المفسدين﴾

(المائدة: ٦٤).

وكثير من ملوك الأرض وزعمائها، قال الله العظيم سبحانه: ﴿قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون﴾ (النمل: ٣٤).

ويأجوج ومأجوج، يقول الله العليم الحكيم سبحانه: ﴿إنّ يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض﴾ (الكهف: ٩٤).

والمنافقون، قال الله العزيز الحكيم عنهم: ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ (البقرة: ١٢).

وكثير من أقوام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين بُعِثُوا فيهم، مثل: قوم لوط وشعيب عليهما الصلاة والسلام، وفرعون وملئه وقارون، إلى غير هؤلاء من المفسدين في الأرض.

وبعد التعرف على بعض من وردت في حقّهم الألفاظ القرآنية في الفساد والإفساد نحتاج أن نقف مطوّلاً مع إطلاقات هذا المفهوم القرآني وعلى من يُطلق، ومن يشار إليه بالفساد والإفساد من الخلق.

وبعد استقراء النصوص القرآنية الواردة في الفساد والإفساد خلصت إلى أنهما يطلقان على ما يلي:

١- الكفر والشرك بالله العظيم سبحانه:

وللباحث عن الحقيقة أن يتأمل أي فساد وإفساد أعظم من الكفر بالله تعالى والإصرار عليه والدعوة إليه، بل وإجبار الناس على التقيد به، والإعراض عن الدين الإسلامي. ولا خطر أخطر من فسادٍ يخالف فيه أمر الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام في الأرض.

ويسعى كثير من المفسدين في الأرض إلى نشر الكفر والشرك بالله تعالى بشتى الوسائل ومختلف الأساليب، فمنهم من يسلك طرق الترغيب والترغيب دون الترهيب، ومنهم من يفضّل إجبار الناس وغصبهم على اعتناق ملة أو مذهب من المذاهب الأرضية بحكم القوة والسيطرة، يقول الله العظيم سبحانه: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابًا فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ (النحل: ٨٨).

إن الكفر بالله سبحانه وتعالى والبعد عن الدين واتخاذ الشركاء من دون الله يفسد السموات والأرض ومن فيهن، يقول الله تعالى ذكره: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾ (المؤمنون: ٧١).

وقال الواحد الأحد سبحانه: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾ (الأنبياء: ٢٢).

٢- النفاق:

إن لفظ النفاق مصطلح إسلامي يعني إظهار الخير مع إبطان الشر، لا تعبدًا لله تعالى. وهو شر محض، بل فساد وإفساد، وإن زعم أصحابه وأهله أنهم مصلحون ويسعون في الأرض للإصلاح فيه، يقول الله الحكيم العليم سبحانه عن المنافقين: ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ (البقرة: ١١، ١٢).

ولذلك يلزم هؤلاء المنافقين عند توبتهم الإصلاح مقابل ما قاموا به من الفساد والإفساد في الأرض، كما يلزمهم الاعتصام بالله تعالى وإخلاص الدين لله سبحانه. قال الله الخبير سبحانه: ﴿إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرًا. إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرًا عظيمًا﴾ (النساء: ١٤٥، ١٤٦).

٣- قطع ما أمر الله تعالى بوصله:

إنّ قطع ما أمر الله تعالى بوصله فساد وإفساد في الأرض؛ لأننا مأمورون جميعًا أن نصل ما أمر الله تعالى ذكره بوصله لا أن نقطع ما أمرنا بوصله من الطاعات والخيرات والقربات التي يحبها الله تعالى ويرضى عنها وعن أصحابها.

يقول الله العليم سبحانه: ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ (الرعد: ٢٥).

وما يسعى إليه كثير من المفسدين في الأرض من تقطيع ما أمر الله تعالى بوصله أنواع؛ فهم يسعون إلى إغلاق أبواب الخير الدائمة والجارية، وبالمقابل فإنهم يفتحون أبواب الشر المغلقة والمستحيلة في بلاد المسلمين سعيًا منهم إلى الإفساد في الأرض دون النظر إلى أن هذا الأمر أو ذاك مخالفة لأوامر الله تعالى وتقطيع لما أمر الله سبحانه أن يوصل.

ومن الأمثلة القرآنية على تقطيع ما أمر الله تعالى بوصله ما يقوم به فئام من الناس – هدانا الله وإياهم – من تقطيع الأرحام.

يقول الله البصير سبحانه: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم. أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ (محمد: ٢٢، ٢٣).

٤- الإسراف:

والإسراف بمفهومه العام إفساد في الأرض، والمسرفون هم المفسدون ألا ترى أن إتلاف وإسراف الأموال العامة والخاصة له أثره البالغ على الفرد والمجتمع . كما أن الإسراف في المعنويات قد يكون أحيانًا أخطر منه في الماديات والمحسوسات. وهو بصفة عامة فساد وإفساد في الأرض يجب مقاومته والحذر من

أهله.

قال الله العزيز سبحانه على لسان نبيه صالح عليه الصلاة والسلام مخاطبًا قومه: ﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين. الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ (الشعراء: ١٥١، ١٥٢).

ومن أمثلة المفسدين ما قصّه الله تعالى علينا في كتابه المبين من أمر قارون يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إنّ قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾ (القصص: ٧٦، ٧٧).

٥- سفك الدماء وإهلاك الحرث والنسل:

إن من صور الفساد والإفساد في الأرض استخدام العنف بسفك الدماء، واستحلال الأعراض والتعدي على حقوق الآخرين، وسلبها من أصحابها. والمجتمعات والدول التي تعاني من مثل هذا لا يستقر لها قرار ولا تعرف الأمن والإصلاح.

فقد ذكر لنا الله سبحانه وتعالى أن الملائكة الكرام عليهم الصلاة والسلام قالت لله تعالى أثناء الحوار عن الأرض وخليفتها: ﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ (البقرة: ٣٠).

كما ذكر الله العليم الخبير سبحانه عن فئام من البشر سعيها الحثيث للإفساد وإهلاك الحرث والنسل: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألّد الخصام. وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد. وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾ (البقرة: ٢٠٤-٢٠٦).

وضرب لنا القرآن الحكيم أمثلة لهذا النوع الخطير من الفساد والإفساد في الأرض بأقوام وأشخاص كانت غايتهم العظمى في الحياة الدنيا إشاعة الخوف وسلب الأمن من المجتمعات بالقتل وإراقة الدماء والتعدي على الآخرين.

فمن أعلى وأولى الأمثلة فرعون لعنه الله تعالى، حيث سعى المأخوذ الهالك طيلة حياته إلى ذلك.

قال الله الخبير سبحانه: ﴿إنّ فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾ (القصص: ٤).

وهؤلاء تسعة رهط كانوا مفسدين في الأرض زمن نبي الله صالح عليه الصلاة والسلام، يقول الله تبارك

وتعالى: ﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون. قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون. ومكروا مكرًا ومكرنا مكرًا وهم لا يشعرون. فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنّا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾ (النمل: ٤٨-٥١).

٦- ضعف الولاء والبراء:

إن زعماء الكفر ورواده يتواطئون على الفساد والإفساد، ومن ينظر إلى حالهم وتآلفهم يرى أن بعضهم أولياء بعض، بينما يُفقد في بعض مجتمعات المسلمين هذا الولاء والبراء والتآلف في الدين والعقيدة. والفساد الكبير الذي يستشرى في هذه الدول والمجتمعات من أسبابه ودوافعه عدم أو ضعف الولاء بين المسلمين والبراء من أعدائهم الكافرين، فضلاً عن نصرة من يطلب النصر من ضعفاء هذه الأمة الإسلامية.

قال الله العظيم الحليم سبحانه: ﴿إنّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا وهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير. والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ (الأنفال: ٧٢-٧٣).

٧- ترك الجهاد ودفع السوء عن المجتمعات:

ذكر لنا القرآن الكريم قاعدة وأصلاً تنبني عليه أصول الحضارات وبقاء الأمم ونشر الصلاح والإصلاح؛ ألا وهو استمرار السنة الإلهية في الكون من تيئة أقوام ودول إسلامية تجاهد وتقاتل الأعداء وتدفع المعتدين وترد الغاصبين. وإذا ضعف ذلك أو تركه أهله فانتظر الفساد في الأرض بصوره القائمة وأشكاله الظالمة.

يقول الله القوي العزيز سبحانه: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ (البقرة: ٢٥١).

٨- سرقة المال العام:

في جزء من قصة نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام مع إخوته لما قدموا إلى مصر أثناء قدومهم الثاني عليها طلبًا للميرة والطعام في سنوات القحط السبع أمر يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام بعض فتيانه أن يضع صواع الملك – وهو مكيال الدولة الرسمي – في رحل ووعاء أخيه الشقيق حتى يتمكن من إبقاء أخيه الشقيق لديه في مصر، وهي خطوة من خطواته عليه الصلاة والسلام لاستدراج إخوته. ولما أذن الرحيل إلى مصر أذّن مؤذن الدولة الرسمي – أي أعلم وأشهر – ﴿أيتها العير إنكم لسارقون. قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون. قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم. قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾ (يوسف عليه الصلاة والسلام: ٧٠-٧١).

إنّ من صور الفساد والإفساد في الأرض سرقة المال العام والتعدي على ممتلكات الدول بحجج واهية أو مستندة إلى أنظمة وضعية أو طارئة.

والواجب على الجميع المحافظة على المال العام، والتواصي بذلك.

٩- العلو في الأرض بغير الحقّ:

إن الاستعلاء على البشر والاستكبار في الأرض بغير الحق صورة متكررة لما يفعله كثير من المفسدين. يرون غيرهم من الخلق لا شيء، ولا وزن لهم عندهم. وحديث هؤلاء يتخلله التحدث عن الإنجازات أو الاختصاصات بحال المتكبر المستعلي في الأرض على الخلق أجمعين. كما أنه يتسلل إلى عباراتم ومنطوقاتم شيء من ألفاظ الأنانية والعندية. يقول الله علام الغيوب سبحانه: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًا في الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين﴾ (القصص: ٨٣).

ومن أمثلة العالين في الأرض المستكبرين المفسدين فرعون وقارون قال الله الحكيم سبحانه عن فرعون: ﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم﴾ (القصص: ٤)، ويقول الله العليم سبحانه: ﴿وإن فرعون لعالٍ في الأرض وإنه لمن المسرفين﴾ (يونس عليه الصلاة والسلام: ٨٣).

وقال الله سبحانه وتعالى عن قارون: ﴿إنّ قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم﴾ (القصص: ٧٦).

١٠- السحر:

لقد عمّ العالم كله تعاطي السحر وانتشار السحرة والكهنة والمشعوذين في الأرض على حساب الضعفاء والجهال من البشر الذين يؤمنون بؤلاء السحرة، ويرتادون محلاتم وزواياهم الخفية والظاهرة طمعًا في علم شيء من الغيب، أو نيل مستحيل عليهم، أو الإضرار بأحد من الخلق. ولا شك أن انتشار السحر والسحرة في البلاد وبين العباد فساد وإفساد عظيم لعقائد المؤمنين وعقول الموحدين.

وقد طلب فرعون – وهو الذي يرعى السحرة في بلاده ويؤيدهم ويُكرِهُهُم على تعلمه وتعاطيه – أن يأتوه بكل ساحر عليم ليواجه بم موسى الكليم عليه الصلاة والتسليم ﴿فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون. فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين. ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾ (يونس عليه الصلاة والسلام: ٨٠-٨٢) [(٩)].

وبعد؛ فهذا غيض من فيض، وغرفة من حوض من فوائد وكنوز القرآن الكريم ولطائفه، وسوف أكمل هذه الفوائد والدرر إن شاء الله تعالى في المبحث التالي الذي أتحدث فيه عن أمور مهمة في شأن الفساد والإفساد والمفسدين في الأرض.

المبحث الثالث

أصول وفوائد قرآنية

في الفساد والإفساد

بعد الدراسة السابقة لمفهوم الفساد والإفساد في القرآن الحكيم سأتعرض الآن إلى شيءٍ من الأصول والقواعد والفوائد والفرائد القرآنية في موضوع الفساد والإفساد والمفسدين في الأرض إكمالاً لتتمات موضوع (**مفهوم الفساد والإفساد** في **ضوء آيات الكتاب**) أسأل الله تعالى ذكره أن يعيننا على تدبر آياته وفهمها والعمل بمحكم القرآن الكريم، آمين.

وهاكم هذه الأصول والفوائد والقرآنية المستنبطة في موضوع الفساد والإفساد:

١- من أسباب ظهور الفساد في البر والبحر وحكمه:

إنّ تعددت أسبابُ ظهور الفساد والإفساد في الأرض وحِكَمه فمن أظهر ذلك قول الله الحكيم العليم سبحانه: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ (الروم: ٤١).

فالسبب الرئيس لظهور الفساد في الأرض هو ما قدمته أيدي بني آدم من الذنوب والمعاصي.

والحكمة البارزة من هذا الظهور إذاقة الناس بعض ما قدمته أيديهم، ولعل ذلك يكون سببًا لتوبتهم ورجوعهم إلى مولاهم وخالقهم سبحانه. وهذا يُظهر مدى حكمة الله تعالى ورحمته بالخلق أجمعين.

٢- من أهم واجبات المصلحين النهي عن الفساد:

قال الله تعالى شأنه: ﴿فلولا كان من القرون أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلاّ قليلاً ممن أنجينا منهم﴾ (هود: ١١٦).

فهم بقية صالحة مصلحة، وهم قلّة ناجون من عذاب الله تعالى.

وقام هؤلاء البقية المصلحة من أنكر على أممهم ونـاهم عن الفساد في الأرض، فجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمصلحين شاهد على ذلك على مرّ الدهور وكرّ العصور، فلنصغ إلى نبي الله صالح عليه الصلاة والسلام وهو ينهى قومه عن العثي في الأرض بالإفساد، قال الله عز شأنه: ﴿فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ (الأعراف: ٧٤). وها هو نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام ينهى قومه عن الإفساد في الأرض، قال الله الحكيم سبحانه: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين﴾ (الأعراف: ٨٥).

قال الله سبحانه وتعالى عن قارون: ﴿إذ قال له لقومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾ (القصص: ٧٦-٧٧).

٣- أنّ الله سبحانه أعلم بالمفسدين:

فلا يخفى حال أحد من المفسدين على علاّم الغيوب سبحانه وتعالى، وهو أعلم بخطواتهم العلمية والعملية، وتخطيطاتهم التنفيذية والتطويرية يقول الله سبحانه عن نفسه: «وربك أعلم بالمفسدين» (يونس عليه الصلاة والسلام: ٤٠)، فلا أعلم بهم من الله تعالى، وهذا يستلزم أن نبذل ما نستطيع في مواجهة المفسدين في الأرض بعد توكلنا التام على الله تعالى وتفويض العلم بحالهم إلى العليم الخبير سبحانه: «فإن الله عليم بالمفسدين» (آل عمران: ٦٣)، كما أنا إذا عجزنا عن إدراك أحوالهم ومعرفة مخططاتهم والكشف عن أشخاصهم فإننا نؤمن بأن الله تعالى أعلم بهم منّا.

٤- «إن الله لا يصلح عمل المفسدين»:

هذا أصل قرآني عظيم وفائدة فريدة، وسنة من سنن الله تعالى في الكون، يقول الله تعالى ذكره: «إنّ الله لا يصلح عمل المفسدين» (يونس عليه الصلاة والسلام: ٨١)، إنّ المفسدين وإن قاموا في هذه الدنيا بكثير من الأعمال الخيرية الظاهرة فإن الله تعالى لا يصلحها ولا يقبلها منهم.

ألا ترى يوم بنى المنافقون المفسدون على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسجد الضرار أمر الله تعالى رسول عليه الصلاة والسلام بإحراقه وهدمه، ونهاه أن يصلح فيه، ولم يؤذن للنبي صلى الله عليه وسلم بالاستفادة منه، يقول الله تبارك وتعالى: «والذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون. لا تقم فيه أبدًا» (التوبة: ١٠٧، ١٠٨).

٥- المفسدون لا يصلحون:

قد ينغرّ كثير من السذج ببعض المفسدين فيظنهم مصلحين فقرر لدينا أصلاً عظيمًا؛ ألا وهو أن المفسدين لا يمكن لهم أن يصلحوا مهما بدا لنا أو لغيرنا أنهم مصلحون، يقول الله العظيم العليم سبحانه: «وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون» (النمل: ٤٨)، وقال الله تعالى شأنه على لسان نبّيه صالح عليه الصلاة والسلام مخاطبًا قومه: «ولا تطيعوا أمر المسرفين. الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون» (الشعراء: ١٥١-١٥٢).

٦- ليس كل من ادعى الإصلاح كان مصلحًا:

وخصوصًا من عرف عنه القوم ميله إلى الفساد والإفساد ورعاية ذلك من قبل ، يقول الله سبحانه وتعالى عن المنافقين المفسدين: «وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنّما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون» (البقرة: ١١-١٢).

فلا يجوز لأحد أن ينجذب إلى الشعارات فقط، بل عليه أن ينظر إلى المضامين وسير هؤلاء الذين يدّعون الإصلاح، هل هم من أهل الإصلاح، أم لا؟ والله سبحانه وتعالى يقول عن نفسه: ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾ (البقرة: ٢٢٠).

٧- ليس كل من اتهم بالإفساد كان مفسدًا:

وخصوصًا من عُلم عنهم حسن العمل والسعي إلى الإصلاح كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصديقين والشهداء والصالحين يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض﴾ (ص: ٢٨).

وقد اتهم فرعون لعنه الله تعالى نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام بذلك، قال فرعون لقومه: ﴿إني أخاف أن يبدّل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ (غافر: ٢٦).

وبالمساندة والتواصي بالباطل قال الملأ من قوم فرعون لفرعون: ﴿أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك﴾ (الأعراف: ١٢٧).

إنّ المفسدين يتهمون غيرهم بالتهمة التي فيهم، ويسقطون عن أنفسهم صفة الإفساد، ويلصقونها بالمصلحين تنفيرًا عنهم وتحذيرًا منهم.

٨- من أهم واجباتنا تجاه المفسدين:

مع نهينا عن الفساد والإفساد في الأرض فإنّه ينبغي علينا أمور منها:

أ- الاستمرار في الإصلاح والثبات عليه، وعدم التوقف أو التراجع عنه.

ب- عدم اتباع سبيل المفسدين في الأرض، وكان من وصايا نبي الله موسى لأخيه هارون عليهما الصلاة والسلام لما خلّفه في قومه: ﴿واخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ (الأعراف: ١٤٢).

جـ- الدعاء بالنصر على القوم المفسدين:

فقد دعا بذلك نبي الله لوط عليه الصلاة والسلام بعد أن دعاهم مرارًا وتكرارًا إلى نبذ الفساد والإفساد في الأرض، يقول الله العليم الحكيم سبحانه عنه عليه الصلاة والسلام: ﴿قال ربّ انصرني على القوم المفسدين﴾ (العنكبوت: ٣٠).

٩- عاقبة المفسدين وخيمة:

وهكذا هي نهاية كل مخرّب ظالم مفسد في الأرض، مهما علا وطغى وتجبر فإن عاقبته إلى وبال، ونهايته إلى سفال، ولذا تكرر هذا اللفظ القرآني مرارًا بعد ذكر قصص بعض المفسدين من الأمم الغابرة الهالكة:

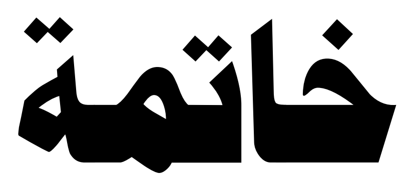
اا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ا (الأعراف: ١٠٣، والنمل: ١٤).

ويقول الله سبحانه وتعالى: اا وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ا (الأعراف: ٨٦).

١٠- الله سبحانه وتعالى لا يحب الفساد ولا المفسدين:

يخبر الله تعالى عن نفسه: اا والله لا يحب الفساد ا (البقرة: ٢٠٥) وقال الله سبحانه: اا والله لا يحب المفسدين ا (المائدة: ٦٤)، وقال الله تعالى ذكره: اا إنّ الله لا يحب المفسدين ا (القصص: ٧٧).

وبالمقابل فإنّ الله سبحانه وتعالى يحب الإصلاح والمصلحين، وهكذا ينبغي علينا أن نتواصى بحبّ الله من وما أحبه الله تعالى وببغض من وما أبغضه الله سبحانه. والمفسدون محرومون من محبة الله تعالى ذكره، ومن حُرم هذه المحبة الإلهية فقد حُرم الخير كله، ولم يوفق لا في دنياه ولا في أخراه، والله تعالى أعلم [١٠].


خاتمة

الحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد؛

فهذا أوان الانتهاء من هذا البحث، ووضع قلم التسيار في هذه الخاتمة لأبّين نتائج وآثارًا استخلصتها منه، فمن ذلك:

١- أنّ الفساد لغة: ضدّ الصلاح، وهو خروج الشيء عن الاعتدال.

٢- أنّ لفظ الفساد والإفساد تكرر في القرآن الكريم خمسين مرة بيئة الفعل والمصدر واسم الفاعل.

٣- المفسدون الذين ذكرهم القرآن الحكيم من الأمم والأقوام والأشخاص كثر، فمنهم بنو إسرائيل وبعض ملوك الأرض ويأجوج ومأجوج والمنافقون وفرعون وقارون وغيرهم.

٤- إطلاقات لفظي الفساد والإفساد العشرة جاءت في القرآن المبين على ما يلي:

الكفر بالله تعالى، والنفاق، وقطع ما أمر الله تعالى بوصله، والإسراف، وسفك الدماء، وإهلاك الحرث والنسل، وضعف الولاء والبراء، وترك الجهاد ودفع السوء عن المجتمعات، وسرقة المال العام، والعلو في الأرض، والسحر.

٥- من الأصول والفوائد القرآنية في الفساد والإفساد ما يلي:

أنّ السبب الرئيس لظهور الفساد وهو ما قدمته أيدي بني آدم من الذنوب والمعاصي وأن من أهم واجبات المصلحين النهي عن الفساد في الأرض، وأن الله سبحانه وتعالى أعلم بالمفسدين، وأن الله لا يصلح عمل المفسدين، وأن المفسدين لا يصلحون، وأنه ليس كل من ادعى الإصلاح كان مصلحًا، وأنه ليس كل من اتهم بالإفساد كان مفسدًا، وأن من أهم واجباتنا تجاه المفسدين: الاستمرار في الإصلاح، وعدم اتباع سبيل المفسدين، والدعاء بالنصر على المفسدين.

وأوصي وأقترح في نهاية هذا البحث ما يلي:

١- التقيد بالرجوع إلى لسان العرب والقرآن الكريم لمعرفة المفاهيم الصحيحة والمصطلحات الدقيقة قبل الرجوع إلى المصادر الأخرى.

٢- بحث مفهوم الفساد والإفساد في ضوء السنة النبوية المطهرة.

٣- نشر البحوث المتخصصة في موضوع الفساد والإفساد حتى لا تدرك الناس فيقعوا فيها وهم يشعرون أو لا يشعرون.

وأخيرًا فإني إنّما أردتُ ما أراده نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام حين قال: إن أريد إلاّ الإصلاح

ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أنيب ا (هود عليه الصلاة والسلام: ٨٨).

أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يتقبل مني هذا العمل وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم سبحانه.

وصلى الله وسلم على نبّينا محمد وآله وصحبه وذريته. والله تعالى أعلم.

الهوامش

(1) مقاييس اللغة (فسد).
(2) المفردات (فسد).
(3) العين (فسد).
(4) لسان العرب (فسد).
(5) تاج العروس (فسد).
(6) انظر: اللسان (فسد).
(7) لسان العرب (فسد).
(8) انظر: عبد الباقي: محمد فؤاد. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة (فسد).
(9) انظر: الدامغاني: الحسين بن محمد. إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم (ص ٣٥٧، ٣٥٨).
(10) انظر من كتب التفاسير: أبا حيّان الأندلسي. البحر المحيط. وسيد قطب. في ظلال القرآن. وابن عاشور. التحرير والتنوير.